(١٣)

العرب..
وطريق المواجهة الشاملة
للتخلف العلمى والتكنولوجى(*)

(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ١٩٩٥/٧/١٩م.

العرب..
وطريق المواجهة الشاملة
للتخلف العلمى والتكنولوجى

لا يزال العقل العربى رغم مرور سنوات وسنوات من مناقشة قضايا العلم والتكنولوجيا فى حالة من الاضطراب والتشوش نتيجة الحيرة والتردد حول: هل نسير فى طريق إنتاج العلم والتكنولوجيا محليا أم نكتفى باستيراد التكنولوجيا والاستمتاع بالنتائج دون الاهتمام بالمقدمات أى دون الاهتمام بصناعة العلم وتطبيقاته التكنولوجية؟!

والحقيقة أن الجميع فى هذه المناقشات يدرك أننا فى حالة تخلف، بل ويدرك الجميع أيضا أسباب التخلف وإن كانوا يركزون دائما على الأسباب الجزئية للتخلف وعلى تشخيص جزئى لحالة التخلف التى نعانيها. وفى هذا الاطار أود أن نعى حقيقة هامة نبه إليها البعض وغابت عن الكثيرين وهى: "أن مسألة تبنى العلوم والتكنولوجيا بصورتهما الغربية من قبل المجتمع العربى فى العصر الحاضر دون أن تحدث تحولات فكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية موازية أمر يسبب الكثير من الاضطراب والاحباط للعقلية العربية ويشعرها دائما بالعجز المستمر عن امكانية التقدم واللحاق بالركب الحضارى المعاصر".

إن إدراكنا لهذه الحقيقة والوعى بها إذا ما رافقه الرغبة الصادقة فى الفعل وامتلاك القدرة على التنفيذ يعنى أنه يمكننا مواجهة هذه المشكلة التى تثقل كاهل الإنسان العربى وتشعره بالعجز والتخلف!! وهذه المواجهة يبدأ طريقها الشاق من محطات ثلاث هى:

أولاً: تسييس عملية تبنى إدخال التكنولوجيا إلى المجتمع العربى، وهذا يعنى فى رأى د. طيب تيزينى، ضرورة وضع التكنولوجيا فى سياق الاحتياجات الداخلية للمجتمع العربى بحيث تنبثق هذه التكنولوجيا وتعبر عن قوانين تطور هذا المجتمع بحيث يقوده "الموقف إلى إحداث تطابق نسبى بين البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من طرف وما يترتب عليها من وضعيات فكرية وأخلاقية وعملية وسلوكية من طرف آخر". إن ما نعنيه هنا ببساطة هو ضرورة ألا تنفصل عملية ادخال التكنولوجيا إلى العالم العربى عن السياسة التى تتبناها البلدان العربية بمعنى أن تتوحد سياسات الدول العربية إزاء هذه القضية بشرط أن تكون هذه السياسة متكاملة؛ فيتم تمهيد الطريق لنقل هذه التكنولوجيا إلى الإنسان العربى بتثقيفه وتأهيله لتطبيقها وتقبلها والتعامل معها بشكل طبيعى، ويتم كذلك توفير كافة الامكانات المطلوبة للعلماء المتخصصين حتى تنمو القدرة الذاتية للعالم العربى فلا يتوقف ابداعه عند حد فهم التكنولوجيا

الغربية واستيعابها، بل يتجاوز ذلك إلى المنافسة والتفوق من واقع إدراكه لمشكلات بيئته التى تتطلب تكنولوجيا من نوع معين.

ثانياً: العمل وفقا لحقيقة هامة هى: أن التكنولوجيا فى أى مجتمع لا تنفصل عن الدراسات العلمية النظرية القائمة فيه وعن القدرات التنبؤية والإبداعية التى يمتلكها علماؤه وعلى ذلك فإن من الخطأ أن نتصور أن نجاحنا فى استنبات التكنولوجيا المعاصرة وامتلاكها بالمعنى العميق الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة يعنى أننا حققنا التقدم المنشود! فالتقدم المنشود ينبغى أن يقوم على تطوير العلم النظرى نفسه وتشجيع المتخصصين فيه وتوفير كافة الامكانيات المادية وكافة الأجهزة التى تحقق لهم الاستقرار والإبداع ومواصلة الكشوف النظرية. ويأتى بعد ذلك الاهتمام بمجالات تطبيق هذه البحوث النظرية لهؤلاء العلماء سواء قاموا هم بتطبيقها والاستفادة منها علمياً أم قام غيرهم بذلك.

إن أكبر خطأ نرتكبه فى عالمنا العربى المعاصر هو أن نركز على دراسة التكنولوجيا وتطبيقاتها ونواتجها دون أن يتواكب مع ذلك أو يسبقه التركيز على التقدم العلمى على المستوى النظرى. وأعتقد أن سببا رئيسيا من أسباب تخلفنا عن الركب الحضارى فى الميدان التكنولوجى هو أننا نكتفى فى معظم الأحيان باستيراد التكنولوجيا ونحاول استيعاب تطبيقاتها المختلفة دون الاهتمام بمعرفة ما وراء

هذه التطبيقات التكنولوجية! وبالطبع فإن غياب المعرفة بالنظرية العلمية يجعل من الصعب جدا على أى دارس أو باحث أو ممارس أن يفهم تطبيقاتها ونواتجها التكنولوجية بصورة جيدة.

إن العلم والتكنولوجيا الآن قد أصبحا حليفين وشهدا تداخلا واضحا زالت معه الحواجز الزمنية التى كانت تفصل بينهما حتى القرن الماضى. ومن ثم فإن علينا أن ندرك خطورة ما ينادى به البعض الآن من أننا نحتاج للتطبيقات التكنولوجية وللماهرين فيها فقط؛ فالمهارة التكنولوجية لا تنفصل عن العلم النظرى فى عالم اليوم، كما أنهما أصبحا من اختصاص العلماء المؤهلين تأهيلا عاليا فى الكليات العلمية ذات الامكانيات البحثية المتطورة.

ثالثاً : إن إدراكنا لأهمية العاملين السابقين والعمل بموجبهما يقتضى منا ضرورة رفض تلك الدعوة التى تروج لها بعض الدوائر الدعائية الغربية والصهيونية حول إمكانية التكامل بين القدرات العربية البشرية والمادية وبين العبقرية العلمية الصهيونية المدعمة بالتكنولوجيا الأمريكية المتقدمة لخلق حضارة عربية جديدة. وهى دعوة ربما يجرى طرحها الآن على مائدة المفاوضات متعددة الأطراف التى تجرى الآن بين العرب واسرائيل وبمشاركة بعض دول أوربا وأسيا!! إن هذه الدعوة - التى تجد للأسف الشديد من يؤيدها من المثقفين والسياسيين العرب - تروج لمعادلة خطيرة هى:

قدرات عربية نفطية مالية وبشرية+ عبقرية يهودية صهيونية + تكنولوجيا أمريكية= حضارة عربية (شرق أوسطية) من طراز جديد.

إن من يؤيدون هذه المعادلة الخطيرة يتصورون خطأ أنها يمكن أن تحل مشكلة العلاقة بين "التخلف العربى" و "التقدم الغربى" فى العصر الحالى! والواقع أنها معادلة تكرس هذا التخلف وتحول الإنسان العربى إلى ممول أو عامل لخدمة الهيمنة الغربية التى تعد اسرائيل أداتها ورأس حربتها فى المنطقة العربية. إن مكمن الخطأ فى الترويج لهذه المعادلة من قبل السياسيين أو بعض المفكرين العرب هو العجز عن إدراك أن التخلف العربى مسألة لا يمكن تداركها مطلقا عن طريق الاعتماد على الغير لأن الاعتماد على الغير سواء كان على أمريكـــا أو أوربا أو على حليفتهما اسرائيل سيرسخ فينا التبعية ويزيد من تخلفنا، فضلا عن أنه سيزيد من اتساع الفارق بين العلم والتكنولوجيا العربيين، وبين نظيرهما فى العالم الغربى واسرائيل. إن التبعية لا يمكن أن تولد تحرراً، وإن استمرار الإستيراد لايمكن أن يشجع أو يولد إنتاجاً مبدعاً فى أى مجال من المجالات! إن الطريق الذى نراه ضرورياً للتخلص من التبعية الإستيرادية وبالتالى من التخلف العلمى والتكنولوجى إنما يكون فى وضع خطة مستقلة للتطور العلمى والتكنولوجى نعتمد فيها على القدرات العربية إلى أقصى حد ممكن. ويمكن فى هذه الحالة

الاستفادة من خبرات بلاد استطاعت فعلا تحقيق التقدم عن طريق تطوير القدرات الذاتية واستنفار كل امكانياتها.

وأمامنا فى هذا المجال نموذجان هما: اليابان والصين. أما اليابان فقد استطاعت - فى مجتمع كان ولا يزال من المجتمعات ذات الثقافة السابقة على الثقافة العلمية كمجتمعاتنا العربية - أن تكثف جهودها من أجل تحقيق هدفها فى النمو الاقتصادى السريع فاختارت أن تسخر العلم الصناعى والتكنولوجيا فى مجال الصناعات الإلكترونية التى تكمن فيها أوفر فرص النجاح فى ظل ظروف اليابان المحلية السائدة وهى كثافة السكان وقلة الموارد.

أما النموذج الصينى، فقد أزال الجوانب غير العلمية القديمة فى الثقافة الصينية، وركز على نشر الثقافة العلمية مما جعل العلم ينمو بسرعة، وأدى ذلك التركيز على خلق ثقافة علمية جماهيرية اعتمد فيه الصينيون على الذات محاولين حل المشكلات التى تخص الصين وحدها. وقد أدى ذلك فى النهاية إلى خلق تكنولوجيا صينية مستقلة تركز على صنع منتجات رخيصة الثمن تتضافر فيها تقنيات إنتاج متناسقة تجمع بين التقليدى والحديث.

وبالطبع فإننا لا نهدف من وراء الدعوة إلى الاستفادة من هذين النموذجين أن نحاكى أحدهما وإنما أردنا أن نؤكد على أن تحديد الهدف بدقة ومعرفة طريق تحقيق هذا الهدف بالاعتماد على

الذات ودون تقليد لأحد كان وراء هذا التقدم الهائل الذى حققته اليابان وتفوقت فيه على أمريكا وعلى كل الدولَ الأوربية، بل وبدأت تهددهما فى عقر دارهما. وكذلك الحال بالنسبة للنموذج الصينى الذى ينمو ويتقدم باطراد ملحوظ ويحقق التقدم والتفوق الذى سيكفل للعملاق الصينى فى النهاية أن يخرج من "قمقمه" ويهدد الغرب.

إن الاعتماد على الذات والتقليل من الاعتماد على الغير فى ضوء ما رأيناه من تجارب الأمم الأخرى، هو الطريق الأمثل للخروج من أزمة التخلف العلمى والتكنولوجى الذى نعانيه رغم أنه لا ينقصنا الإمكانيات المادية والبحثية كما لا ينقصنا وجود الكفاءات العلمية والكوادر المدربة على صنع العلم واستنبات تكنولوجيا خاصة. إن الثقة بالنفس وبالامكانات العربية ضرورة ملحة فى هذه المواجهة الشاملة لكل أسباب التخلف.

(١٤)

نحو مشروع عربى
لصناعة العلم وإنتاج التكنولوجيا(*)

(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ١٩٩٥/٧/٢٦م.

نحو مشروع عربى..
لصناعة العلم وإنتاج التكنولوجيا

لاشك أن التقدم العلمى كان ولا يزال علامة بارزة من علامات التقدم الحضارى فى كل العصور ولدى كل الحضارات. ومن الخطأ البيّن أن نقع أسرى للمقولة التى يرددها ويروج لها بعض المفكرين الغربيين وبعض المتغربين من مفكرينا، وهى "أن العلم صناعة غربية"! فالحقيقة التى ينبغى ألا تغيب عن بالنا لحظة هى أننا استطعنا ابداع العلم وإنتاج التكنولوجيا فى الماضى البعيد منذ ظهرت الحضارات الأولى التى علمت البشرية كل شىء على ضفاف النيل ووادى الرافدين، كما أبدعناه وشاركنا فى تطويره ابان العصر الزاهر للحضارة الإسلامية التى لولاها لتجمد العلم وتوقف نهر الإبداع، وينبغى أن ندرك أيضا أن هذا النهر الإبداعى للعرب وللمسلمين لم يتوقف تماما منذ هذا التاريخ وإن أخذ فى التضاؤل شيئا فشيئا بفعل عوامل خارجية وداخلية عديدة، لكن لم يحدث قط أن أصيبت الأمة العربية أو الاسلامية بالعقم العلمى التام فى أى عصر أو فى أى قرن أو فى أى عقد من العقود التى مرت علينا فى القرون الماضية.

وإذا ما أدركنا هذه الحقيقة جيدا، فإن الثقة بالنفس وبإمكانية المشاركة فى الإبداع العلمى والتكنولوجى العالمى ستزداد ويجف منبع الإحباط والتردى الذى تحاول كل الأجهزة الغربية ومستشاريها بثه فينا!! وإذا ما تولدت لدينا هذه الثقة بالنفس لأمكننا أن نلتف حول خطة قومية عربية شاملة لتحقيق التقدم العلمى والتكنولوجى. ومن جانبى ومن واقع الدراسات المستفيضة التى قام بها المختصون العرب أرى أن هذا المشروع الحضارى العربى لصناعة هذا التقدم ينبغى أن يبدأ من الأسس التالية:

أولاً : وضع استراتيجية عربية موحدة تتضافر فيها الجهود السياسية والإمكانيات الاقتصادية العربية لتحقيق أهداف محددة. وبدون هذه الاستراتيجية الموحدة لن تنجح أى دولة بمفردها فى تحقيق شىء له قيمة فى هذا المجال، وتجدر الإشارة إلى أن الجامعة العربية قامت ولا تزال تقوم بجهود هامة فى هذا الاتجاه ويمكن تطوير هذه الجهود لوضع هذه الاستراتيجية والالتزام بها من كل الدول العربية.

ثانياً : فى إطار هذه الاستراتيجية الموحدة يجب إنشاء مراكز موحدة متعددة الجوانب والتخصصات للبحث العلمى وذلك بهدف خلق كوادر علمية مدربة على أعلى مستوى فى الوطن

العربى تقوم بصناعة العلم والتكنولوجيا وفق الامكانيات الذاتية العربية وبالمواد الخام المحلية وحسب الاحتياجات الفعلية للبلدان العربية على أن يشرف على هذه المراكز ويقوم بتدريب كوادرها العلماء العرب سواء من العقول العربية المهاجرة أو من العلماء الموجودين على أرض الوطن وهم كثيرون وينتظرون هذه الفرصة التى تتضافر فيها كافة الجهود وتوفر لها كل الامكانيات بفارغ الصبر. وبالطبع فإن هذا لا يقلل من شأن مراكز البحث العلمى المنتشرة فى مختلف الدول العربية خاصة فى مصر والأردن والعراق وبلاد المغرب العربى، لكن إمكانيات هذه الدول وحدها لا تكفى فإن كان لديها العقول العلمية الماهرة فليس لديها الامكانيات المادية أو المواد الخام الكافية! وهكذا فإن التكامل العربى فى هذا المجال ضرورى بحيث تكون هذه المراكز البحثية المتخصصة تابعة مباشرة للجامعة العربية ومدعمة باعتمادات مالية غير محدودة وقادرة على خلق الاستقرار للعلماء المحليين واستجلاب العلماء المهاجرين بالدول الاوربية وأمريكا واستراليا.

ثالثاً : إنشاء المراكز المتخصصة للتعريب والترجمة العلمية فى كل فروع العلم وخاصة العلوم الطبيعية والرياضية. وقد يقول قائل: لماذا التركيز على تعريب العلوم الطبيعية والرياضية دون العلوم الإنسانية!! وله أقول: إن العلوم الإنسانية قد قطع فيها المترجمون العرب شوطا طويلا، فضلا عن أن ما نحتاجه الآن من علماء الإنسانيات هو جهدهم الإبداعى الذى يُنظّرون من خلاله واقعنا المعاش بدلا من أن يطبقوا فى دراساتهم مقولات غربية جاهزة تُفقد دراساتهم للواقع المحلى أى قيمة! وعلى كل حال، فإن ما نطلبه ليس التوقف التام عن الترجمة فى العلوم الإنسانية، وإنما إعادة التوازن المفقود فى مسألة التعريب لأنه فى الوقت الذى نجد فيه كما هائلا من المترجمات فى العلوم الإنسانية، نجد فى المقابل فقرا واضحا فى المترجمات العلمية! وليس أدل على ذلك الفقر أكثر من أننا لا نزال نعتمد فى التدريس فى الكليات العلمية على المؤلفات الغربية بلغاتها الأصلية.. وهذا أمر يدعو إلى الأسف الشديد!! فمن الضرورى إذا أردنا خلق بيئة مواتية للثقافة العلمية - التكنولوجية أن نسارع إلى التوسع فى ترجمة هذه المؤلفات إلى اللغة العربية. ولا مجال هنا لسرد حجج أنصار الإبقاء على النظام الحالى فهى فى

اعتقادى حجج واهية أقل ما ترسخه فى أذهان أصحابها وفى تلاميذهم الإحساس المرير بالدونية وبالعجز! ان اللغة العربية أثبتت على مر العصور أنها لغة معطاءة متجددة، استطاعت فى الماضى أن تستوعب علوم اليونان والروم والفرس وأن تصبح اللغة الأساسية للعلم طوال العصور الوسطى.

وبالطبع فإنها تستطيع بفضل جهود أبنائها أن تستوعب العلوم المعاصرة. لقد استوعبت لغات أخرى كثيرة هذه العلوم وطورتها حسب مصطلحها الخاص مثل اللغة اليابانية والروسية والسويدية وغيرها، واللغة العربية ليست أقل أهمية أو أقل مرونة من هذه اللغات!! ان تعريب العلوم فى اعتقادى يمثل قضية من القضايا المصيرية فى موضوعنا هذا لأنه سبيلنا الوحيد إلى تملك القدرة العلمية وهو السبيل الوحيد إلى خلق المناخ الملائم الذى يستدعى مشاركة المجتمع كله فى التقدم العلمى المنشود؛ فهناك الفنيون والعمال والاداريون والمنظمون الذين يسهمون فى تكوين هذه القدرة العلمية والذين عليهم أن يستوعبوها فى لغتهم الأصلية، وكذلك هناك المستهلكون الذين عليهم هم أيضا أن يفهموا وأن يستوعبوا كل ما يستخدمونه من سلع وعقاقير وآلات حديثة متنوعة.. إلخ.

رابعاً : إعادة العقول العلمية العربية المهاجرة ذات السمعة العلمية إلى وطنها العربى وأعرف أن كثيرين منهم يرغبون فى ذلك لكنهم يخشون البيروقراطية والروتين الحكومى وكثرة العقبات التى يمكن أن تعوق استكمال أبحاثهم وتطويرها ومن ثم تعوق تقديم خبراتهم وخدماتهم إلى مجتمعهم! إن عودة هؤلاء العلماء ضرورية لأسباب عديدة منها؛ ما يتمتعون به من خبرات علمية واسعة اكتسبوها عبر احتكاكهم المباشر بمراكز البحث العلمى المتقدمة فى الغرب، وما يمكن أن يمثلوه من قدوة للعلماء العرب الشبان من حيث خبرتهم فى الهجرة وفى البحث العلمى. كما أن عودتهم أمر ضرورى ليحتلوا مراكز القيادة والصدارة فى الجامعات والمراكز البحثية العربية بدلا من اعتماد هذه الجامعات والمراكز فى كثير من البلدان العربية والإسلامية على القيادات غير العربية مع ما فى ذلك من خطر؛ فهذه القيادات غير العربية تفتقر فى معظم الأحيان إلى الإخلاص المطلوب والحماس اللازم والقدرات الضرورية، فضلا عن أنهم قد يندسون لأغراض تجسيسة أو سياسية بهدف تقييد عملية التقدم العلمى والتكنولوجى والتحكم فى مسارها، وتبديد الثروات العربية فى مشاريع براقة ليس لها من المردود

الحقيقى إلا ما يتوافق مع مصلحتهم ومصلحة دولهم فقط على حد تعبير انطوان زحلان.

خامساً : ضرورة التركيز على التنشئة والتربية العلمية للشباب العربى؛ إذ أن إنشاء المؤسسات العلمية المختلفة لن يكون له قيمة كبيرة إن لم تتوافر دائما الظروف الموضوعية لاستمرار هذه المراكز فضلا عن توافر الإقبال من الشباب العربى على التخصصات العلمية وتحفزهم للإبداع فى هذه التخصصات الصعبة. ولن يكون هذا الإقبال ممكنا إلا إذا ركزنا على التربية العلمية فى المدارس والجامعات العربية إلى جانب التركيز على التربية الدينية والأخلاقية والثقافية لهؤلاء الشباب.

إن النظام التربوى العربى ينبغى أن يتلاءم ويتوافق مع الاستراتيجية التى نسعى لاستنباتها داخل العالم العربى للتقدم العلمى والتكنولوجى. ومن ثم ينبغى التركيز على تنمية القدرات العلمية لطلاب المدارس والجامعات ويمكننا ذلك بأكثر من صورة منها على سبيل المثال:

١- إدخـــال مقرر علمى إجبارى فى كل البلدان العربية على كل الطـــلاب يدرســـونه إمـــا فى السنة النهائية من دراستهم فى

المدارس الثانوية أو فى السنة الأولى من دراستهم الجامعية، على أن يكون هذا المقرر موحدا وأن تعد مفرداته وأساليب تدريسه وتتولى الإشراف عليه جهة محايدة من الجهات العلمية التابعة للجامعة العربية. ويهدف هذا المقرر إلى بث الروح العلمية والتفكير العلمى المنهجى لدى الطالب العربى. إن اكساب الشباب العربى حب البحث العلمى ومعرفة مهاراته المختلفة وكيفية استخدامها فى حياته العلمية والخاصة مسألة ضرورية وحيوية من شأنها أن توفر ولو بشكل جزئى الوعى الجماعى لدى الشباب العربى بأهمية العلم والبحث العلمى بل وأهمية الإبداع العلمى وضرورته الوطنية.

٢- وإذا أضفنا إلى ذلك الإكثار من إصدار المجلات التى تنشر الثقافة العلمية على مستوى الوطن العربى عبر طباعة أنيقة فاخرة وبلغة بسيطة وبأسعار رخيصة فى متناول أى شاب عربى وأضفنا أيضا الإكثار من بث البرامج العلمية واستضافة كبار العلماء فى ندوات إذاعية وتليفزيونية محببة مع التركيز على التغطية الإعلامية المنظمة لكل الأنشطة العلمية والبحثية، لاكتمل الوعى الجماعى بأهمية العلم

وبضرورة البحث العلمى فى كل الميادين لدى الشباب العربى فضلا عن شيوخ المجتمع من غير المتعلمين، ولتوفرت بذلك بعض الظروف الموضوعية الضرورية المنشودة لنمو العطاء العلمى وزيادة القدرات الإبداعية فى ميدان العلم.

إن الاتفاق على تنفيذ هذه الخطة القومية ليس مستحيلا. وليس مستحيلا بعد ذلك أن نتحول إلى الإبداع الذاتى للعلم والتكنولوجيا سعيا وراء تحقيق نمط جديد للحياة على أرضنا العربية، نمط لا يكون صورة باهتة ممسوخة لنموذج غريب علينا وعلى بيئتنا وواقعنا!!

إن تحقيق هذا النمط الجديد للحياة على الأرض العربية يتطلب توفير الجو الفكرى والمناخ السياسى الملائمين من خلال ما أشرنا إليه فيما سبق. وجوهر المطلوب هنا هو إتاحة الحرية الفكرية والحرية السياسية للجميع حتى تتوافر لديهم الدافعية ليتحولوا من متلقين إلى مشاركين، ومن ناقلين إلى مبدعين.

(١٥)

مشكلة الأصالة والمعاصرة
من التناحر بين الفرق
إلى صياغة فلسفة عربية معاصرة (*)

(*) تحت النشر بمجلة "المنتدى" الإماراتية بدبى.

مشكلة الأصالة والمعاصرة
من التناحر بين الفرق إلى صياغة فلسفة عربية معاصرة

إن حياتنا الفكرية منذ أوائل القرن الماضى قد تأثرت تأثراً بعيد المدى بذلك الصدام الفكرى أو بالأحرى اللقاء الحضارى الذى تم بيننا وبين الحضارة الغربية إثر الغزو الاستعمارى لبلداننا العربية. وقد أصبح أحد هموم الإنسان العربى منذ اتصلت الأواصر بيننا وبين الغرب الحديث هو كيف يمكنه التوفيق بين تلك العلوم الحديثة وذلك التقدم الهائل الذى أنتجه الغربيون وبين تراثنا الفكرى الذى يكن له كل التقدير والاحترام ويعتبره جوهر شخصيته وحصنه الحصين الذى يحتمى به؟!

• **ثلاث فرق ومواقف متباينة :**

ولقد شعر بهذا الهم أول ما شعر النخبة المثقفة من أبناء الأمة العربية والإسلامية، فوجدوا أنفسهم فى صراع فكرى عصف بهم فانقسموا إلى ثلاث فرق؛ كل فريق يتخذ موقفا مختلفا عن الفريقين الآخرين؛ فأول هذه الفرق آثر أن يتحصن فى التراث ويحتمى به ويتخذ منه سلاحاً أيديولوجيا يواجه به التحدى الغربى ممثلاً فى علومه وفلسفاته المتقدمة. ورأى ثانى هذه الفرق نقيض ما رآه أنصار الموقف السابق حيث وجد هذا الفريق أن الأفضل أن ننفصل عن تراثنا الفكرى الماضى وأن ننشغل فقط بحضارة عصرنا ومنجزاته العلمية فنقبل على هضم هذا الفكر الجديد ونعرف أدواته ومناهجه

ونظرياته فنكون بذلك مشاركين فى حضارة عصرنا غير عابئين بما كان فى ماضينا الفكرى لأن الماضى مضى وانتهى ولم يعد صالحا لنواجه به ما فى العصر الحالى من تقدم فكرى وعلمى وتقنى فى مختلف المجالات.

أما الفريق الثالث فقد توسط بين الفريقين السابقين وحد من مغالاتهما معاً ورفض تطرفهما حيث وجد هذا الفريق أن الفريقين السابقين قد اختارا الموقف الأسهل، فما أيسر أن نعبر عصور التاريخ وأن نعود إلى الوراء وأن نعيد إحياء الماضى بحذافيره ونقلد ما كان فيه فنصبح نسخاً مما كان فى ذلك الزمان البعيد. وما أيسر أن نتخذ موقف الفريق الثانى فنعبر البحر الأبيض ونتجه إلى أوربا ونتعلم إحدى لغاتها الهامة وننهل من علوم الأوروبيين ونقلدهم فى عاداتهم الاجتماعية وفى أزيائهم ولغاتهم وحفلاتهم فنكون نسخاً مكررة مما هو كائن فى أوربا المعاصرة!

لقد وجد الفريق الثالث أنه سواء رحلنا إلى الماضى ونهلنا من معينه أو سافرنا إلى أوربا وأمريكا وقلدنا ما فيهما من مظاهر حضارية جديدة فإن هذا لن يصنع لنا ثقافة أو فكراً عربياً معاصراً، لأنه إذا كان الفريق الأول عربياً يتجه بنا إلى الوراء لإحياء كل ما هو عربى أصيل فهو ليس بالمعاصر الذى يجعلنا جزءاً من العالم المعاصر نشارك فيه كما يشارك غيرنا، فإن الفريق الثانى يعد معاصراً وليس عربياً لأنه طالب بأن نأخذ كل ما فى حضارة الغرب

المعاصر دون أن نجهد أنفسنا فى المواءمة بين تراثنا القديم وبين حضارة العصر الذى نعيش فيه. وبالطبع فإن موقف هذا الفريق الثالث يتلخص فى أن طريقنا إلى صياغة فلسفة عربية معاصرة يكمن فى محاولة صياغة ثقافة عربية جديدة فيها علم الغرب وتقدمه التقنى وفيها قيم التراث العربى فى آن واحد.

- **حجج السلفيين " و" العصرانيين" :**

وقد حاول أنصار هذه المواقف الثلاثة أن يقدموا الحجج التى تثبت صحة موقفهم وأن يلتمسوا الطريق للخروج من الأزمة الراهنة. فالفريق الأول الذى يقف فيه السلفيون – على حد تعبير د. محمد عابد الجابرى – أو أنصار العودة إلى التراث يرون أن مواجهة الحضارة الغربية المعاصرة لايكون إلا بحضارتنا العربية الإسلامية التى تملك كل عناصر القوة والأصالة وفيها الحض على العلم والعقل وهما الأساس الذى بنت عليه الحضارة الغربية الحديثة نفسها. ومن ثم فإنهم يعتقدون أننا لسنا بحاجة إلى الارتماء فى أحضان الحضارة الغربية بقدر ما نحن بحاجة إلى العودة إلى حضارتنا الإسلامية وقيمها الأصيلة لنجلو جوهرها ونعيدها حية فى نفوسنا وعقولنا فنحيا بها ونعيش عصرنا من خلالها. إنهم يرون أن الحفاظ على جوهر الشخصية العربية الإسلامية هو سلاحنا فى مواجهة الحضارة الغربية المعاصرة. وعلى الرغم من الاتجاهات المتعددة التى يتشعب إليها أنصار هذا الموقف باعتبار أن منهم

السلفى المتشدد الرافض لكل المظاهر الحضارية الغربية المعاصرة ومؤسساتها وفكرها وثقافتها وعلومها، ومنهم السلفى المعتدل الذى يقبل من حضارة العصر ومؤسساته ما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية أو ما يمكن تبريره داخلها إلا أن الجميع متفقون على أن تمسكنا بتراثنا الحضارى الذى جوهره الدين الاسلامى وقيمه الثابتة فى العدل والمساواة والشورى والدعوة إلى العمل الصالح فى كل ميادين الحياة هو طريقنا الصحيح فى مواجهة قيم الحضارة الغربية والتفوق عليها.

أما الفريق الثانى الذى يقف فيه " العصرانيون" – على حد تعبير د. الجابرى أيضاً – أو أنصار المعاصرة فيرون أن مدخلنا إلى حضارة العصر هو حضارة العصر نفسها! فمن الضرورى فى نظرهم تبنى النموذج الغربى المعاصر بوصفه النموذج السائد فى العصر كله وباعتباره النموذج الذى فرض نفسه كضرورة تاريخية لحضارة الإنسان المعاصر. إنهم يرون أنه ليس أمامنا أى خيار، فلابد أن نقبل هذا النموذج الغربى وأن نتعامل معه بمنطقه وعلومه وتقنياته حتى نكون معاصرين ومشاركين للأمم المتقدمة فى صنع حضارة العصر.

- **التوفيقيون ومحاولة صياغة أسس للفلسفة العربية الجديدة :**

أما الفريق الثالث الذى يقف فيه " التوفيقيون" أى أنصار المواءمة بين الأصالة والمعاصرة، فيرون أنه بالإمكان أن يلتقى

الطرفان المتنازعان عند نقطة أولية هى أنه لا تعارض بين أن نكون معاصرين وبين أن نكون محافظين على تراثنا وقيمنا العربية الإسلامية، بمعنى أن نأخذ عن الغربيين المعاصرين كل عناصر القوة والتقدم فى المجالات المختلفة ونستنبتها فى بيئتها العربية خاصة وأن ديننا الإسلامى ليس فيه ما يعارض التقدم العلمى والتقنى الذى هو جوهر الحضارة الغربية المعاصرة وقائد مسيرتها فى التقدم والرخاء.

ويرى د. زكى نجيب محمود – وهو أبرز ممثلى هذا الاتجاه التوفيقى منذ كتابه " تجديد الفكر العربى" – أنه إذا كان الاشكال الفلسفى الذى واجه أسلافنا من العرب المسلمين الأقدمين هو كيف يوفقون بين أحكام الشريعة ومنطق العقل، فإن الاشكال الفلسفى الجديد هو كيف نوفق بين التقدم العلمى وبين إنسانية الإنسانية؟!

إن هذا الإشكال الفلسفى الجديد – فى نظر د. زكى – لا يواجه العرب وحدهم بل يواجه صانعو الحضارة الغربية أنفسهم؛ فلقد فشل الغربيون وهم صانعو العلم الحديث فى إقامة اللقاء الأمثل بين "العلم" وتقدمه، وبين " الإنسان" ومطالبه الروحية؛ ففى الوقت الذى تمكنوا فيه من تحقيق أعلى درجات التقدم العلمى بتقنيات جديدة ومبتكرة، كادت هذه التقنيات نفسها أن تقضى على إنسانية الإنسان وتجعله مجرد عبد لمال يكسبه أو علم يحصله أو شهوة يبحث عن

إرضائها دون أن تترك فسحة من الوقت ليتأمل فيها نفسه وحياته وعلاقاته بالآخرين وبالكون الذى يعيش فيه ودون أن تترك له فرصة للإيمان بمعتقدات دينية سليمة وبقيم أخلاقية سامية.

وإذا كان الغربيون قد وقفوا أمام هذا الإشكال الفلسفى الجديد عاجزين أو يكادوا يكونوا كذلك، فإنه بإمكان أبناء الحضارة الإسلامية أن يقدموا فلسفتهم العربية الإسلامية المستوحاة من العقيدة الإسلامية المغروسة فى نفس كل عربى مسلم، والتى تقوم على الاعتقاد فى مبدأ الثنائية التى دائماً ما تشطر الوجود شطرين متمايزين لا وجه للمساواة بينهما مثل ثنائية الخالق والمخلوق (الله – العالم والإنسان)، ثنائية الروح والمادة، العقل والجسم، المطلق والمتغير، الأزلى والحادث.. الخ .

إن فكرة الثنائية التى اعتبرها د. زكى نجيب محمود جوهر ثقافتنا العربية الإسلامية يمكن أن تكون الأساس للفلسفة العربية المعاصرة التى تمكننا من تجاوز إشكال الأصالة والمعاصرة الذى يطفو على السطح كلما فكرنا فى كيفية مواجهة ذلك النموذج الحضارى الغربى، حيث إن هذا الإشكال سيصبح فى هذه الحالة بغير مضمون؛ فإذا كنا نواجه حضارة سرتفوقها هو التقدم العلمى التقنى، واتاحه الحرية الكاملة أمام العقل الإنسانى للإبداع والابتكار فى كل المجالات، فإن حضارتنا العربية الإسلامية وهى تراثنا الذى نستند إليه فى تحديد هويتنا وشخصيتنا المستقلة كانت الأسبق فى

الدعوة إلى ذلك والمشاركة فى صنعه، كما أن ديننا الإسلامى الحنيف متمثلا فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية لايعارض مثل هذا التقدم ولا يقف عائقاً أمام حرية العقل فى الإبداع كما يتصور دعاة المعاصرة والنقل عن الغرب، بل على العكس فقد كان الدين الإسلامى هو الدعامة الأساسية التى دفعت أسلافنا إلى الإبداع فى كل المجالات فى إطار المحافظة على التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسم.

وعلى ذلك، فلا مانع يمنعنا من أن نشارك فى حضارة العصر والتفاعل معه تفاعلاً إيجابيا سواء بالأخذ أو بالعطاء، فنحن كعرب وكمسلمين لا يمكن أن ننسلخ عن عروبتنا أو أسلافنا فهما مدخلنا الأصيل إلى المشاركة فى الحضارة المعاصرة بتميز مفاده تحقيق التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسم؛ فالعلم الذى يصنعه الإنسان ليحقق من خلاله مطالبه المادية لا ينبغى – كما يحدث فى الغرب الآن – أن يتحكم فى الإنسان ويحد من قدراته الطبيعية ويحوله إلى عبد لشهواته أو لكسب ثروة أو غير ذلك من مظاهر القوة المادية، بل ينبغى ترشيده ليخدم التقدم الإنسانى دون أن يهدم الإنسان ويدمر بيئته وقدراته الطبيعية. وهذا لا يتأتى إلا إذا أعيد الاهتمام بمطالب الإنسان الروحية التى قوامها العقيدة الدينية الإيمانية من جانب والتمسك بالمبادئ الأخلاقية السامية من جانب آخر.

(١٦)

أخلاق الإنسان العربى...
بين الأصالة والتبعية (*)

(*) نشرت بصحيفة " البيان" اليومية الإماراتية، دبى فى ١٩٩٢/١٢/١٥

أخلاق الإنسان العربى..
بين الأصالة والتبعية

إن الأصل فى الحياة الأخلاقية للإنسان هو الاعتدال. ولا أدل على ذلك من أن التراث الأخلاقى للبشرية فى أنقى صوره وأشيعها كان فى معظمه دعوة إلى هذه الفضيلة الجوهرية. فمنذ أن بزغ فجر الضمير الإنسانى فى الحضارة المصرية القديمة عرف الناس ضرورة النظام والعدالة مع النفس ومع الغير، عرفوا ضرورة ضبط النفس والاعتدال.

وها هو بتاح حوتب رائد الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة يدعو قومه – فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد – من خلال نصائحه لابنه فى " مخطوط الحكمة" إلى ضبط النفس وعدم الشره، والالتزام بالعدل والنظام فى كل شىء(*).

وها هو كونفوشيوس رائد الفكر الأخلاقى فى الصين القديمة يدعو فى كتاباته المختلفة ومنذ فجر القرن السادس قبل الميلاد إلى

(*) أنظر ما كتبناه عنه فى كتابنا : نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة – دراسات فى الفلسفة المصرية واليونانية، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٧.
وايضاً فى كتابنا : المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ١٩٩٧.

أخلاق الوسط والاعتدال مشيراً إلى أن الذات الإنسانية من طبيعة وسط؛ فالإنسان ليس بهيمة كما أنه ليس إلها، ومن ثم فعليه أن يعيش وفقا لذاته العاقلة الخيرة التى تمنعه من فعل الشر وتلزمه عدم الافراط فى اللذة، كما تلزمه ببناء مجتمع إنسانى يقوم على الأخلاق والعدالة(*).

وقد جاء التراث اليونانى متأثراً بكل هذا ومؤكداً له، فمنذ فجر التراث الفلسفى لليونان نجد هيراقليطس - وهو فيلسوف المادة والتغير فى القرن السادس قبل الميلاد - حينما يأتى للحديث عن الأخلاق يقول إن على الإنسان أن لا يلبى كل مطالب النفس لأن منها تلك النفس الرطبة التى يلذ لها الإفراط فى الشراب، ومنها النفس الجافة المعتدلة، وهو يحذر من الأولى ويطالب الإنسان أن يعيش وفقاً لمطالب الثانية التى تزهد فى كل ماليس ضرورياً من مأكل وملبس واللذات الأخرى. كما نجد ديمقريطس - وهو الفيلسوف المادى الذى فسر العالم تفسيراً ذرياً مادياً - يتحدث عن الأخلاق الإنسانية فيقول إن الأصل فيها هو "اعتدال المزاج" لأن طبيعة الإنسان تختلف عن طبيعة الحيوان. ولذلك فاعتدال مزاج الإنسان إنما يكون بالزهد فى مطالب الحياة المادية وعدم الإفراط فى ممارسة اللذات. وهو يعتبر أن الوسيلة إلى كل ذلك إنما هى "الثقافة"

(*) انظـــر مـــا كتبناه عنه فى كتابنا : فلاسفة أيقظوا العالم، الطبعة الثانية، دار قباء بالقاهرة، عام ١٩٩٨م، الفصل الثانى.

فالقراءة والثقافة هما أساس " اعتدال المزاج" الإنسانى لأن الثقافة والتأمل هما المطلب الحقيقى للعقل بينما الأكل والشرب وصنوف اللذات الأخرى إنما هى من مطالب الجسد.

وعلى نفس الدرب سار فلاسفة اليونان الكبار فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد سقراط وأفلاطون وأرسطو؛ فقد دعا الأول إلى معرفة النفس الإنسانية التى هى جوهر عاقل فى الأساس، ومن ثم فمطالبها الأساسية إنما هى المعرفة والفضيلة وكلاهما أساس السعادة الإنسانية. ولذلك لم يكن غريباً أن يوحد سقراط بين حياة المعرفة والفضيلة وبين حياة السعادة وأن يعتبر أن الخير الأقصى للإنسان هو أن يكون عالماً فاضلاً. ولم يقدم أفلاطون وأرسطو بعد ذلك إلا تبريرات لهذه العقيدة السقراطية.

وهكذا كانت الفلسفات الأخلاقية فى القرون السابقة على الميلاد تقريباً تدعو إلى هذا التوحيد - الذى افتقدناه فى حياتنا الأخلاقية المعاصرة - بين حياة الفضيلة التى قوامها الاعتدال وبين الحياة السعيدة للإنسان. وإن كانت هناك استثناءات قليلة حادت عن هذا الرأى، فإنها لم تكن مؤثرة كما أنها لم تلق الانتشار، وكان الناس يعيشون بالفعل حياة قوامها التوحيد بين الفضيلة والسعادة.

وما أن تأتى القرون الأولى للميلاد حتى تؤكد الديانات السماوية كل هذه المعانى السامية حينما نجدها تجمع على أن الإنسان

كائن أخلاقى بطبعه وأنه خليفة الله على أرضه؛ وهكذا كان الأمر فى المسيحية، كما ظل كذلك وتدعم أكثر فى الإسلام . وقد تميزت الأخلاق الدينية بأنها ربطت الأخلاقية عند الإنسان المؤمن فى حياته الدنيا بجزاء عظيم سيجنيه فى الحياة الأخرى، فلم يعد الاعتدال وممارسة الفضيلة يتعلقان بأسباب دنيوية فقط بل أصبحت أمورا لها مردودها فى الحياة الأخرى للإنسان، حياته بعد البعث حيث الجنة التى وعد الله بها كل الخيرين العابدين التائبين، الذين نفذوا كل أوامر الله والتزموا حياة التقوى والصلاح والأخلاق القويمة.

ونعلم جميعاً كيف وحد الإسلام العرب وغير من أخلاقهم المادية التى كانوا عليها قبل الإسلام، كما نعلم كيف تعهد بالرعاية فضائلهم التقليدية التى اشتهروا بها كالشجاعة والكرم والمروءة والأريحية وحضهم على المزيد منها. لقد تحول الإنسان العربى بفضل الإسلام إلى إنسان زاهد عابد متبتل إلى الله، ولم يعد له من عمل فى حياته الدنيا إلا ارضاء ربه والجهاد فى سبيله، وزهد فى مطالب الحياة الدنيا وامتنع عن الإفراط فى اللذة بكافة صنوفها وما أكثر اللذات التى كان قد تعود عليها فى حياة الجاهلية !! .

وكلنا يعلم ماذا ترتب على هذا التحول فى حياة الإنسان العربى. إن هذا التحول إلى هذه الحياة الأخلاقية المعتدلة التى كان

قوامها الدين الإسلامى والالتزام بتعاليمه جعلهم سيوفا لله تتفتح أمامها أعتى الحصون والقلاع، فكان انتشارهم فى بقاع الأرض وسيطرتهم على القاصى والدانى من ممالك الفرس والروم والترك والعجم والبربر، وكانت دولتهم الإسلامية أعظم دولة شهدتها الأرض ليس من حيث اتساع مساحتها أو من حيث قوة جيشها وتقدم أسلحته فقط، بل من حيث سيادة العدالة ودفع الظلم عن كل من عاش على أرضها، ومن حيث اعتدال حكامها وأمرائها ذلك الاعتدال الذى كان قوامه اهتمامهم الشديد بالثقافة والعلوم. لقد أدركوا جوهر الدعوة القرآنية إلى حياة إنسانية تتوازن فيها مطالب العقل مع مطالب الجسد، فدعموا كل ما يؤدى إلى ازدهار العلوم والأداب وكل ما يحفز العقل إلى التأمل والإبداع، فكانت الأخلاق المعتدلة التى تتوازن فيها مطالب العقل مع مطالب الجسد. ولم يكن غريباً فى إطار ذلك أن نجد فيلسوفنا الإسلامى الكبير أبو نصر الفارابى يدعو إلى مدينة فاضلة تقوم على هذه الدعائم الأخلاقية الإسلامية القويمة ويشترط فى حاكمها أن يكون ــ إلى جانب إلمامه وحفظه للشرائع والسنن وإلى جانب قدرته العقلية على جودة الاستنباط واصدار الأحكام ــ غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، وأن يكون محباً للصدق وأهله مبغضاً للكذب وأهله، وأن يكون الدرهم والدينار

وسائر أعراض الدنيا هينة عنده، كما ينبغى أن يكون محبا للعدل وأهله مبغضاً للجور والظلم وأهلهما.

ولقد كان الفارابى نفسه مثالاً يحتذى فى هذا الصدد، حيث عاش حياة زاهدة لم يهتم فيها بجمع المال رغم صلته الوثيقة بالأمراء والحكام فى عصره، لقد فضل حياة الثقافة والعلم فانقطع لهما مؤثراً الوحدة والتأمل على حياة الترف والدعة.

إذن ما الذى حدث؟! وما الذى غير أخلاقنا إلى هذا الحد الذى أكاد أرى فيه حياة الجاهلية الأولى؟! ما الذى جعلنا ننغمس فى حياة اللذة المادية إلى هذا الحد الذى يكاد يقضى على الكثيرين منا ؟! ما الذى جعلنا نلهث بهذا الشكل المخيف وراء أحدث موديلات الملابس والسيارات والعطور.. الخ! ونلهث وراء كل فخم وعظيم من القصور السكنية فى الشرق والغرب. ما الذى جعلنا نرى المثل الأعلى فى ضخامة الأرصدة التى فى البنوك وفى الحياة المترفة الناعمة المتخمة بكل جديد فى عالم تكنولوجيا الأجهزة والغذاء والكساء؟؟!

إنها ليست الثروة وتداعياتها كما يظن البعض، وإلا لاقتصرت هذه المظاهر لدى من يمتلكون الثروة فقط. إن الثروة لو كانت هى

السبب فيما يحدث لما كان هذا الشره والإغراق فى حياة اللذة أو فى طلبها قد أصبح هو القاسم المشترك بين أبناء كل الشعوب العربية يستوى فى ذلك من أبناء هذه الشعوب الغنى منهم والفقير، العالم منهم أو الجاهل !!.

إن الملاحظ المدقق يرى أنه رغم المجاعة التى تعصف ببلاد عربية فقيرة مثل الصومال، فإن أهلها لم يتوقفوا عن القتال طلباً للسلطة، كما لم يكفوا عن نهب المعونات التى تأتيهم من الخارج، وبدلاً من أن توحدهم الأزمة الطاحنة التى ألمت بهم ويستعيدوا قيمهم الأصيلة فى حب الغير والإيثار ونجدة بعضهم البعض ليواجهوا هذه المحنة القاسية. زاد تشبثهم بحياة القتال واللصوصية والانتهازية!! والحقيقة أن الصومال ليست سوى أحد الأمثلة التى يمكن الحديث عنها فى هذا المقام، إذ أن الأمثلة يفوقها الحصر فى بلاد العرب من المحيط إلى الخليج؛ إذ أن نفس ما أشرنا إليه فى الصومال هو ما يحدث الآن فى السودان منذ سنوات، وفى مصر بعد الزلزال، وفى بلاد الخليج بعد حرب الخليج الأولى والثانية.. الخ.

إن كل أزماتنا سببها الحقيقى فى اعتقادى إنما هو انفراط عقد قيمنا الأخلاقية الأصيلة وبُعدنا عن الالتزام الحقيقى بتعاليم ديننا

الحنيف التى تحض على التآخى والتكافل الاجتماعى واحترام حقوق الجار واحترام العهود والمواثيق. كما تحض على عدم التكالب على مطالب الحياة المادية المترفة، وعلى عدم التكالب على السلطة لأن الحكم فى الإسلام إنما هو التزام ومسئولية عظمى. وكلنا يعلم كيف أشفق على نفسه منها أبو بكر الصديق، وكيف بكى من هولها وهول جزاء المقصر فيها عمر بن الخطاب!!

إن كل ذلك التكالب على حياة الترف والسلطة، والاستغراق فى الانشغال بمطالب الحياة المادية بأموالها ولذائذها إنما مرده فى اعتقادى - بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من نسيان تراثنا الأخلاقى الأصيل وإهمالنا لتعاليم ديننا - أننا أصبحنا نعيش نموذج الحياة الغربية ونقلده فى أسوأ ما فيه. إن الحياة الغربية منذ مطلع العصر الحديث قد اتجهت وجهة مادية تطورت من الاهتمام بالعلم والعمل الجادين لصنع حياة وحضارة جديدة، إلى استهلاك لنواتج ذلك التطور - الذى تم فى القرون الثلاثة السابقة - من مصنوعات وأجهزة أغرقت الإنسان فى حياة الرفاهية والراحة والكسل ثم المزيد من الرفاهية والراحة والكسل ثم المزيد منها.. وهكذا مما سيؤدى فى النهاية إلى فقدان الإنسان عزيمته وقدراته التخيلية والإبداعية بعدما أفقدته فعلاً الاهتمام بتكوين حياة أسرية واجتماعية سوية. إن الإنسان

الغربى المعاصر أصبح يعيش حياته - فى معظم الأحوال - وحيداً فرداً مستغرقاً فى ممارسة أقصى قدر من اللذات المادية بمختلف الوسائل الطبيعية وغير الطبيعية، الضرورية وغير الضرورية.

ولقد تنبه المفكرون الغربيون المعاصرون إلى هذه العوامل المدمرة فى حياة الإنسان الغربى، وأصبحوا يلحون فى كل كتاباتهم وندواتهم ومؤتمراتهم على ضرورة التغير، والعودة إلى حياة الطبيعة البكر بما فيها صفاء ونقاء وحرص على الذات وعلى الآخرين. أصبحوا يلحون على ضرورة العودة إلى الأخلاق الاجتماعية السامية التى تشيع جو الاستقرار والأمن الفردى والجماعى.

أما نحن وللأسف الشديد فلا نزال نعيش حياة التقليد لكل ما هو غربى مقيت، التقليد لكل ما نشاهده من حياتهم المبتذلة المفرطة فى اللذية والمادية التى تركز على المظاهر وتلح على تحقيق أقصى قدر من المطالب المادية للإنسان. إننا لا نزال نسير فى طريق التقليد والتغريب دون وعى بالنتائج الفتاكة التى ستترتب على ذلك. ومن عجب أن المفكرين العرب مشغولون فى كل كتاباتهم ومؤتمراتهم بقضايا الأصالة والمعاصرة، المثقف والسلطة، انهيار الشيوعية وتأثير ذلك على السياسة الدولية، تولى كلينتون للسلطة فى البيت

الأبيض وانعكاسات ذلك على محادثات السلام الجارية بين العرب واسرائيل.. الخ، ولم يلتفت منهم أحد إلى هذه القضية الخطيرة؛ قضية الفساد الأخلاقى الذى نعيشه رغم أننا صناع الحياة الأخلاقية المثلى عبر التاريخ!..

إن الفساد الأخلاقى والانحلال السلوكى هما - فى اعتقادى - أحد أركان صراعنا مع الغرب الآن، لأنهما جوهر ما يطمح إلى بثه فينا الإعلام الغربى والصهيونى ليس بمخططاته الدعائية عن كافة السلع الاستهلاكية اللاضرورية فقط، وليس بكل ما ننقله عنه من برامج تلفزيونية وإذاعية وأفلام فيديوية فقط، بل بكافة الوسائل الممكنة الخفية منها والمعلنة!!.

إن حذرنا الأكبر من الغرب ينبغى أن يتمثل فى اكتشاف الوسائل التى ينفذ منها إلينا عبر إغراقنا بكل هذه المنتجات اللاضرورية التى تجعلنا نستغرق فى حياة مادية ناعمة مترفة نركز فيها على الاستهلاكى دون الضرورى فنعيش حياة الدعة والكسل والخمول - بتعبير مفكرنا العربى الفذ ابن خلدون - فتكون مقدمات للنهاية الأليمة التى نرى بوادرها بادية فى الأفق!!

ولا أجد ما يمكن أن يكون أجدى فى ايقاظنا مما نحن فيه أكثر من قوله تعالى فى كتابه الكريم " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" صدق الله العظيم. إن العودة إلى أخلاق الإيمان والاعتدال والتعاون والتكافل بين العرب والمسلمين، والاقتصار على ما هو ضرورى فى المأكل والمشرب والملبس لإدامة حياة الإنسان المادية، أصبح مسألة مصير بالنسبة لأمة تتضافر عوامل خارجية وداخلية كثيرة مهددة إياها بالفناء.